مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية
Eissn : ...-..... Issn : 2353-043X
المجلد 05/ العـدد 01: (2018)، ص 160- 176

المقاصد القرآنية من خلال تعقيبات السّور الختامية
. دراسة وصفية تحليلية .

الاستاذة. سهام داوي
كلية العلوم الإسلامية . خروبة . الجزائر.

ملخص:

التعقيب ظاهرةٌ أسلوبيةٌ يتميّز بها النص القرآني، حيث يشكل ركيزةً أساسيةً في بنائه، فيخدُم الجانب الإيقاعي المتجسد من خلال الفواصل المتناغمة ضمن السّورة الواحدة، ويمكّن للمعنى الذي يُعنى بتوجيهه بما يصل بالقارئ إلى الهدف المطلوب تدبرا،وتفكّرا، وتأثّرا.

ولئن كانت التعقيباتُ أجزاء أساسية من بعض الآياتِ، وخواتيم دقيقة لبعض المقاطع، فإنها تكون في بعض الحالات من جوامع الكلم التي تختتم بها السور، فتتجه بها إلى ترسيخ العقيدة، والدعوة إلى أخذ العبرة من أحوال الأمم السّابقةِ، ومخاطبة الناس بما يستحقّون من وعدٍ ووعيدٍ، وترغيبٍ وترهيبٍ بناءً على ما يكون من أخلاقِهم، وخِصالهم، وهي في مجملها المقاصد الأساسية التي توزّعت عليها موضوعاتُ القرآن الكريم.

Abstract :

Commenting is a stylistic phenomenon characterized by the Qur'anic text, which constitutes a fundamental pillar in its construction. It serves the rhythmic aspect embodied through the harmonious joints within the single surah, and the meaning that can guide it reaches the desired goal to be thought, thought and influenced.

In some cases, the commentaries are the basic parts of some verses, and the precise conclusion of some passages. In some cases, they are from the mosques of the words that conclude with the Surat. It leads to the consolidation of the faith, and the call to take the lesson from the conditions of the previous nations, and to address people with what they deserve, And intimidation and intimidation on the basis of their

ethics, and their virtues, which are in general the basic purposes distributed by the topics of the Koran.

تميّز القرآن الكريم عمّا عهدته العربُ من نظمها، فكان متفرّدا في شكله، مختلفاً في مضمونه، يطوّع اللفظَ للمعنى، ويتنزّلُ بما تتحقّقُ به الهداية بين الناس، جامعاً بين تلقين العقيدةِ، وإصلاحِ الأخلاقِ، والتشريع بما تنصلحُ به معاملات الناسِ فيما بينهم، على ضوءِ التحذير ممّا اقترفه الهالكون، والدعوة إلى أخذ العبرةِ من مصائرهم، فجاء بما أدهش العربَ، ولم يترك لهم منفذاً ينتقصون منه من خلاله، "ولمّا كان من الضروري في إعراضهم التذرُّع بما ينزع عنه القدسية وصفوه بالسحر والشعر وسجع الكهان لكن "كان الخطاب القرآني فوق كل تعريفٍ، وقبل أيّ تصنيفٍ، كان حالةً فريدةً لا مسبوقة ولا ملحوقة، وكان يختار العقل وسيلة وغاية في الوقت نفسه، وكان هذا سرًّا من أسرار إعجازه"[1]

ومن الظواهر الأسلوبية التي برزت في النصّ القرآني "ظاهرة التعقيبات" التي تُقطعُ بها بعضُ الآياتِ، ويُخرجُ بواسطتِها من المقاطِعِ، وتأتي في خواتيمِ السّورِ بما يعطي النتيجة والعبرةَ الساريةَ.

والتعقيبُ مصدرٌ على وزنِ (تفعيل)، وجذره (عقّب)، "ومادة (ع ق ب) أصلٌ في كلامِ العربِ، يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ، وإتيانِه بعد غيرِهِ"[2]، فيُطلقُ على الجلوسِ بعد الصلاةِ للدّعاءِ، أو لانتظارِ صلاةٍ أخرى، "والتعاقُبُ والاعتقابُ: التداولُ، فاللّيلُ والنّهارُ يتعاقبان، ويعتقبان، وهما عقيبانِ، وكلٌّ منهما عقيبُ الآخرِ، والمعقابُ: المرأةُ التي من عادتِها أن تلدَ ذكراً ثمّ أنثى"[3]

[1] - العمري، أحمد خيري، البوصلة القرآنية، ص40.

[2] - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 77/4.

[3] - ابن منظور، لسان العرب، 616/1.

جاء في كتاب (العين):"وعقِبُ الرّجلِ: ولَدُ ولَدِهِ الباقون من بعده"[4]، ويقالُ: لا عقِبَ له: والمقصودُ أنّه لم يبقَ له ولدٌ ذكرٌ، ولا أقوى في التّدليل على الصّلةِ بين التّعقيبِ وقرينتِه من صلِ الولدِ بوالدِه، لأنّ أشياءَ كثيرةً تربطُه به.

ولا يخرجُ المعنى اللغوي للتعقيبِ عن التعاقب بين شيئين، ونهاية الشيء ومؤخرته، وهذا الأخير هو الذي يلتقي مع مقصدنا من مصطلح (التعقيبات القرآنية)، " فالمرادُ بالتعقيب على الآياتِ ذلك الجزء أو المقطع الذي يأتي في ختامها، تُذيّلُ به الآيةُ زيادةً في البيان، ومحافظةً على وحدةِ الإيقاعِ"[5]، إضافة إلى أغراض أخرى تشمل تعليل الأحكامِ، وتقرير الأحوال، حيث يعتبر "سمة أسلوبية هامّة تميّزُ آيَ القرآن الكريم، وأعقاب قصصه، وهي وجه عجيبٌ من وجوه إعجازه البياني، ونعني به ذلك الجزء أو المقطع المستقلّ الذي تُختمُ به آيةٌ أو مجموعةٌ من الآياتِ زيادةً في البيان، وتحقيقاً لأغراضِ الخطاب من مدحٍ وذمٍّ، ووعدٍ ووعيدٍ، وأمرٍ ونهيٍ.. وتوقيعا للآيات بما يناسبُ السياق من جرسٍ، وقد يصبحُ التعقيبُ أطول من ذلك في بعض الحالاتِ، فيتجاوز المقطع، ويتكوّن حينئذ من آيةٍ مستقلّةٍ، أو من مجموعةٍ من الآياتِ"[6]، وكما يكون في ثنايا السور ومقاطع آياتها، نجده في خواتيم بعض السّور خروجا بمعناها العام بما يجلّي مقاصد القرآن الكريم في ترسيخ العقيدة، وتعليل الأحكام، وعرض العبرة من مصائر الأمم السابقة، وترغيب الناس وترهيبهم حسب الذي هم عليه من أحوال.

ولا يخرج القرآن الكريمُ عن سنّة العربِ في صوغِ الكلام، فنجده يعتني بالتعقيبات التي ينقطع عندها الكلام، تعليقا على ما سبقه، وحكما عليه، وتعميما للقول بعد تخصيص وتفصيلٍ على ما نصنّفه في العرض الآتي:

---

[4] -الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، 178/1.

[5] - أبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن الكريم، ص97.

[6] - العرابي، مراد، الظاهرة الأسلوبية في التعقيبات القرآنية، ص27.

أولا: دور التعقيبات الختامية في ترسيخ العقيدة

يحتلّ محور العقيدة مكانة مركزية في القرآن الكريم، فيحفل به القرآن المكي، ويحوم حوله القرآن المدني وإن غلبت عليه الأحكام والتشريعات، من خلال التوجيه إلى عظمة الخالق، والإحالة إلى حكمته السارية في أحكامه، والتنبيه إلى وحدة الكلمة التي جاء بها الرّسل، وتنتظم موضوعات تعقيباته على النحو الآتي:

1-تنزيه الله تعالى والثناء عليه

من تمام العقيدة الصحيحة تنزيه الله تعالى عن النقائص، والثناء عليه بما يستحقه من كامل الأوصاف، وهو موضوع القرآن المكي بلا تنازع، فقد اختتمت سورة (يونس) بخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم، دعوة لاتّباع أمر ربه، والصبر على ما يلاقيه في سبيل دعوته، فقال تعالى﴿**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** ﴾[7] وجاء التعقيبُ في مقطع الآية متوسّعا من سياقها المحدود إلى سياق السورة كلها، حيث كان ختاما مناسبا يلتقي مع مطلع السورة، ويتناسق مع مضمونها على النحو الذي يحيله إلى التعميم، فلا حكم يعلو فوق حكم الله تعالى، ولا حكم أنفع للناس من حكم ربهم الذي خلقهم.

ويتأكد الثناء على الله تعالى في سورة (الحج) التي تختتم بتعقيبٍ مثن على موالاته، ونصره لعباده المؤمنين، فيقول تعالى﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِير** ﴾[8] وهو ختام موجه للمؤمنين تقويما لأحوالهم في الدنيا، وتوصية لهم بما يضمنون به القرب من الله تعالى، والظفر برضاه ونصرته، فبعد تذكيرهم باصطفاء الله تعالى لهم، وموقع أمتهم من الأمم، يأتي الأمر بالصلاة التي هي صلة للعبد بربه، والزكاة التي تقوّي صلة الجماعة ببعضها البعض، والدعوة إلى

---

[7] . سورة يونس الآية 109.

[8] - سورة الحج الآية 78.

الاعتصام بالله، فهي العروة الوثقى التي لا تنفصم، والضمان الذي لا خيبة فيه، ليخلص إلى التعقيب الشامل ثناء على الخالق، وتوجيها لما يكون له من فضل على عباده.

وتنتهي سورة (يس) بتعقيب جامع شمل مضمونها، وربط خيوطه إلى بعضها، منزها لله تعالى ومعظما له استدلالا بعظيم ملكه، ومرهبا من الموقف بين يديه يوم الرجوع الذي لا يكون إلا إليه، فيقول تعالى:(آ **(فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)**

[9] "فالفاء: فصيحة، أي إذا ظهر كلّ ما سمعتم من الدلائل على عظيم قدرة الله، وتفرّده بالإلهية، وأنه يعيدكم بعد الموت، فينشأ تنزيهه عن أقوالهم في شأنه المفضية إلى نقص عظمته، لأنّ بيده الملك الأتم لكلّ موجودٍ"[10]

ويرد تعقيب الثناء الختامي عبر ثلاث آيات في نهاية سورة (الصافات) في قوله تعالى:**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182)**آ [11]، فهو تنزيه لله تعالى، وتنبيه لاختصاصه بالعزة، وما يكون منه من تكريم لرسله، بنعمة منه يستحق الحمد عليها، وهو "خلاصة جامعة لما حوته من تنزيه الله وتأييده رسله، وهذه الآية فذلكة لما حوت عليه السورة من الأغراض، جمعت تنزيه الله والثناء على الرسل والملائكة، وحمد الله على ما سبق ذكره من نعمه على المسلمين: من هدى ونصر وفوز بالنعيم المقيم"[12]

وعلى ذات النسق يأتي قوله تعالى في ختام سورة (الجاثية)**فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ**

[9] - سورة يس الآية 83.

[10] - ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، 80/23.

[11] - سورة الصافات الآيات 180-182.

[12] - التحرير والتنوير، 198/23.

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)[13] ثناء، وتعظيما، وتنبيها لحكمته تعالى في قوته، فلا يعاقب إلا المستحق، ولا يتجاوز إلا عن اقتدار.

وتختتم سورة (الرحمن) التي تتميز بالتعقيبات المكررة على سبيل التوبيخ والتبكيت على الكفر بنعم الله تعالى بتعقيب شامل يثني على الله تعالى بما يستحق، فيقول سبحانه: **تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** تسبيحا باسم الجليل الذي يفنى كل شيء إلا وجهه،كما يستحق الله تعالى الثناء على فضله العظيم الذي شمل جميع المخلوقات، ويقرّر هذا الاستحقاق بتعقيب اختتمت به سورة (الحديد) التي كان محورها تذكير الناس بنعم الله عليهم، وما كان من المعاندين من جحود بها، فيقول: **لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**.

ويأتي التعقيب الختامي في سورة (الحشر) على مدى ثلاث آيات تعدّد صفات الله تعالى، وأسمائه الحسنى، التي تحمل معاني الربوبية، متبوعة بما يكون من العباد من خضوع وتسبيح يستحقه سبحانه وتعالى بما أجرى في هذا الكون من آيات بعزته وحكمته، حيث يقول تعالى: (**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)**( ).

ويتفق تعقيب ختامي آخر ورد في سورة (القصص) مع هذا النوع من التعقيبات في الثناء على الله تعالى، وتأكيد تفرّده بالخلق والأمر، حيث يقول تعالى:(**وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)[14] فلا مناص من حكمه تعالى، ولا مفرّ من قضائه، ولا ملجأ منه إلا إليه.

---

[13] - سورة الجاثية الآيتان 36-37.

[14] - سورة القصص الآية 88.

والله تعالى بعظيم قدره، مستحق لما وصف به نفسه، متعالٍ عن خلقه، منزّه عن النقائص، مستحقٌّ للحمد والثناء، ولكنّ ذلك من خلقه قليل، ولذلك فقد جاءت التعقيباتُ بما يلقّن طريقة الحمد، وما يُظهر مكامن التفرّد والعظمة، "وكان الله سبحانه وتعالى هو الذي بارك نفسه، وحمِد ذاته، ليجبر تقصيرَ العباد، وليؤدّيَ عنهم هذا الدّينَ الذي عجزوا عن أدائه، حتى لا يقطعَ عنهم أمداد هذه النّعم، ولا يأخذهم بعجزهم وتقصيرهم عن أداء حقِّ شكرها وحمدها.. فسبحانه"[15]

2 . تلقين الدعاء والتضرّع

حرص القرآن الكريم على تلقين المؤمنين طريقة الدعاء والتضرّع لله تعالى طلبا للثبات، وللمعية منه سبحانه، وللنصر على الأعداء، فجاء التعقيب الختامي لسورة (البقرة) ملقنا المؤمنين طريقة التضرع واللجوء إلى الله تعالى لاستمداد العون منه على ما كلّفهم، بعد الحكاية عن حال المؤمنين من رسولهم، وكتابهم، وما أنزل قبله من الكتب والرسل، وما حققوه من يقين في الغيبيات مدلّلا عليها بالملائكة، مع التزام السمع والطاعة قدر الوسع المتأتي من الطبيعة البشرية، فقال تعالى:﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾[16]

"وفي هاتين الآيتين كلّ كلمة لها موضعها، ولها دورها، ولها دلالتها الضخمة، وهي قائمة في العبارة لتمثيل ما وراءها من طبيعة الإيمان في هذا الدين، وخصائصه

[15] -الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، 702/5.

[16] - سورة البقرة الآية 286.

وجوانبه، ومن حال المؤمنين به مع ربهم، وتصورهم لما يريده بهم، وبالتكاليف التي يفرضها عليهم، ومن التجائهم لكنفه، واستسلامهم لمشيئته، وارتكانهم إلى عونه"[17] هذا الختام جاء متناسقا مع خط السورة، يلقن المؤمنين ما ينبغي أن يكونوا عليه من الإيمان والتسليم، وما يحفظ لهم مسارهم على طريق الاستقامة من عدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان، ويلهمهم طلب العون الرباني على تكاليف الحياة، والنصرة على الأعداء..

3 . تقرير حقيقة القرآن

حفل القرآن الكريم بالآيات الاستفتاحية المؤكدة على حقيقة التنزيل، وشرف القرآن، وجاء في ثناياه من ذلك الكثير، نفيا لكلّ ما أثاره المشركون والمشككون عنه من افتراءات باطلة، ليقرّر صحته، ومكانته ممّا سبقه من الكتب السماوية المنزلة، ولما كانت خواتيم السور بتعقيباتها ذات أهمية في تقرير المقاصد العامة، وتأكيد المعاني، فقد أكد الله تعالى من خلالها على حقيقة هذا الكتاب فقال في ختام سورة (القلم)ﭐ **وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** ﮯ[18] فهو يحمل الذكرى، والتذكير، ويرسم طريق الهداية إلى الصراط المستقيم رجاء استجابة الناس لهديه، واهتدائهم بهداه، وفي هذا القصر لدور القرآن في حياة الناس إبطال لقولهم (إنه مجنون) لأنهم قالوه في سياق تكذيبهم بالقرآن، فإذا ثبت أنّ القرآن ذكر بطل أن يكون مبلغه مجنون"[19]

4 . تعليل الأحكام بما يحيل إلى عظمة الخالق وحكمته

تميّز القرآن المكي بجانب التشريع، وتنظيم المعاملات بين الناس، ولم تخلُ آية من هذه الآيات من تعقيب يبيّن علّة الحكم فيها، حيث جاءت أغلب التعقيبات القرآنية، وخاصة منها ما كان بصفات الله تعالى وأسمائه الحسنى على سبيل تعليل الأحكام، والتشريعات، والتوجيهات المنظمة لحياة الناس، وكما كانت التعقيبات

[17] - في ظلال القرآن، 340/1.

[18] - سورة القلم الآية 52.

[19] - التحرير واتنوير، 109/29.

متعلّقةً بسياقاتها الضيقة، فمنها ما جاء عامّا في خواتيم السور، وقد رصدناها في الآيات الآتية الذكر:

تختتم سورة (النساء) بقوله تعالى: ﴿ **يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [20]، ولئن جاء هذا التعقيب في ختام آية الكلالة المتعلقة بالميراث إلا أنه حمل معنى إجماليا للسورة كلّها، يقول (سيد قطب):" وتُختم آية الميراث، وتُختم معها السورة بذلك التعقيب القرآني الذي يردّ الأمور كلّها لله، ويربط تنظيم الحقوق والواجبات، والأموال وغير الأموال بشريعة الله.. صيغة جامعة شاملة (بكل شيء) من الميراث وغير الميراث، من علاقات الأسر وعلاقات الجماعات، من الأحكام والتشريعات، فإما اتّباع بيان الله في كل شيء، وإما الضلال"[21]

وتُختتم سورة (المائدة) التي عرضت حقيقة الدين، وحقيقة العظمة لله تعالى الذي خلق وشرّع، وأوحى واصطفى العباد دون أن يجعل لهم نصيبا في الألوهية، بتعقيب ختامي جامع لمضمون السورة، يحيل على القدرة المطلقة لله تعالى، بما لا يعجزه شيء من أحوال الخلق فيقول تعالى: ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [22] إنه "ختام يتناسق مع ذلك المشهد العظيم الذي يتفرّد فيه الله بالعلم، ويتفرد بالألوهية، ويتفرد بالقدرة، وينيب إليه الرسل، ويفوضون إليه الأمر كله، ويفوض فيه عيسى بن مريم أمره وامر قومه إلى العزيز الحكيم، الذي له ملك السموات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير.. وختام يتناسق مع السورة التي تتحدث عن (الدين) وتعرضه ممثلا في اتّباع شريعة الله وحده، والتلقي منه وحده، والحكم بما أنزل دون سواه، إنه المالك الذي له ملك السموات والأرض وما فيهن"[23]

ويحضر مع سياق التشريع ال حربي في سورة (الأنفال) التعقيب الختامي المؤكد لسعة علم الله تعالى، والمعلل به لما يكون منه سبحانه من تصريف الأمور، فيقول

---

[20] - سورة النساء الآية 179.

[21] - في ظلال القرآن، 842/2.

[22] - سورة المائدة الآية 120.

[23] - في ظلال القرآن، 1003/3.

تعالى في ختامها﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[24] ، "وهو التعقيب المناسب على هذه الأحكام والتنظيمات والمشاعر، وتداخلها، وتنظيمها وتنسيقها، فهي من العلم المحيط بكل شيء، علم الله تعالى"[25]

كذلك يحمل التعقيب الختامي لسورة (النور) معنى التعليل لملك الله الواسع، وعلمه المحيط بخلقه، فهو بكل شيء عليم، يقول تعالى﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[26] وعلى عادته في رصد التعقيبات، والتوجيه لمعانيها، يقف (سيد قطب) مع هذا التعقيب الختامي رابطا إياه بمضمون السورة فيقول:" وهكذا تُختم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله، وتذكيرها بخشيته وتقواه، فهذا هو الضمان الأخير، وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهي، وهذه الأخلاق والآداب، التي فرضها الله في هذه السورة، وجعلها كلّها سواء"[27]

وتنضمّ سورة (لقمان) إلى قائمة السور القرآنية المختتمة بالتعقيب المؤكد لسعة علم الله تعالى، وهيمنته على كل ما في الوجود، فيقول عز وجل﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[28] فالغيب عالم خفي لا يعلمه إلا الله تعالى، ولا يعلم منه شيئا إلا من قدر له ذلك، وسمح به، لأنه سبحانه الواسع العلم بمخلوقاته، الخبير بما تنصلح به أحوالهم.

ويحمل تعقيب آخر في ختام سورة (التكوير)معاني القدرة والإحاطة، والتصرف المطلق، فيحصر المشيئة في الله تعالى دون خلقه، ليكون هداهم بيده وحده، فيقول﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[29]

---

[24] - سورة الأنفال الآية 75.

[25] - في ظلال القرآن، 1561/3.

[26] - سورة النور الآية 64.

[27] - في ظلال القرآن، 2536/4.

[28] - سورة لقمان الآية 34.

[29] - سورة التكوير الآية 29.

ومجموع هذه التعقيبات الختامية للسور يحيلنا إلى الخضوع لقوة الله تعالى والتسليم له في حكمته التي جرى بها قيامه على شئون الخلق، وتدبيره لأحوالهم.

ثانيا: دور التعقيبات الختامية في تأكيد العبرة من أحوال الأمم السابقة

اختتمت العديد من القصص في القرآن الكريم بآيات تعقيبية حاثة على استلهام العبرة، وأخذ الدروس من أحوال الأمم الغابرة، وسوء المصير الذي لاقته جراء تكذيبها الرسل، وتميزت سورتا (يوسف) و(إبراهيم) بالخاتمة التعقيبية الداعية إلى اتخاذ العبرة، فحمل تعقيب سورة (يوسف) دعوة عامة للاستفادة من قصص الأمم السابقة وأحوالهم، مؤكّدا أنّ هذا القصص القرآني لم يأت لمجرد السرد التاريخي، بل له أهداف عميقة تتراوح بين تبصير المؤمنين بسنة الله تعالى في خلقه، ونصره لعباده المتقين، ووحدة العقيدة التي جاء بها الرسل، مع ما تحمله من تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما يلاقيه من كفار مكة، فيقول﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾وهو تعقيب متناسب مع ما جاء من تعقيبات في مطلع السورة، وفي ثناياها، إذ تجتمع على الحث على أخذ العبرة، واتباع سبيل المؤمنين، والإعراض عن سبل الكافرين الذين كان الهلاك مصيرهم، "وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين، فيها عبرة لمن يعقل، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل، على غير صلة بين ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وهذه الكتب، فما كان يمكن أن يكون ما جاء به حديثا مفترى"[30]

وكذلك الشأن مع التعقيب الختامي في سورة (إبراهيم)، زالذي جاء فيه﴿**هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾[31] وهو "إعلان عام جهير الصوت، عالي الصدى، لتبليغ البشرية كلها في كل زمان

[30] - في ظلال القرآن، 2037/4.

[31] - سورة إبراهيم الآية 52.

ومكان"[32]، فحكاية قصص السابقين ليست من باب الإخبار التاريخي المجرّد، وإنّما هي حقائق تحمل معها العبرة والعظة، وتسلّم إلى الإيمان الخالص بجميع الديانات السماوية، والنظر في سنن الله تعالى في الخليقة لتجنب ما يؤدي إلى الهلاك، والعيش في ظل طاعة الله تعالى.

ثالثا: دور التعقيبات الختامية في الترغيب بالوعد

تزاوجت ثنائية الوعد والوعيد في القرآن الكريم، وحفل بالآيات الداعية إلى الطاعة والمحذّرة من المعصية، غير أنّ الذي يعنينا في هذا المقام هو عرض ما جاء منها في ختام السور بما يعطي درسا ساريا للعالمين، حيث وُعد المؤمنون بمعية الله تعالى، وختمت به سورة (النحل) في قوله تعالى﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ فكان ضمانا ربانيا لمن حقق في نفسه التقوى، وتجمّل بالإحسان، أن يكون معه ناصرا ومعينا وحافظا في مسيرة الحياة، "وأتى في جانب التقوى بصلة فعلية ماضية للإشارة إلى لزوم حصولها وتقرّرها من قبل، لأنها من لوازم الإيمان، لأنّ التقوى آيلة لأداء الواجب، وهو حقّ على المكلّف، وأتى في جانب الإحسان بالجملة الاسمية للإشارة إلى كون الإحسان ثابتاً لهم، دائما معهم، لأنّ الإحسان فضيلة، فبصاحبة حاجة إلى رسوخه من نفسه وتمكّنه"[33]

كذلك تُختتم سورة (العنكبوت) بتأكيد معية الله تعالى للمحسنين فيقول عز وجل﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أولئك يضيع الله إيمانهم، ولن يتركهم وحدهم، بل سيضمن لهم المعية، والرعاية، والعون ما داموا أحياء.

وإلى جانب المعية، تفيد التعقيبات الختامة الوعد بالمغفرة فيقول تعالى في سورة (الأحزاب)﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (73)﴾[34]

---

[32] - في ظلال القرآن، 2114/4.

[33] - التحرير والتنوير، 338/14.

[34] - سورة الأحزاب الآية 73.

"فاختصاص الإنسان بحمل الأمانة، وأخذه على عاتقه أن يعرف بنفسه، ويهتدي بنفسه، ويعمل بنفسه بنفسه، هذا كله ليحتمل عاقبة اختياره، وليكون جزاؤه من عمله، وليحق العذاب على المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، وليمد الله يد العون للمؤمنين والمؤمنات، فيتوب عليهم مما يقعون فيه تحت ضغط ما ركب فيهم من نقص وضعف"[35]

كذلك يعد الله تعالى عباده المتقين بالمغفرة في تعقيب ختمت به سورة (المزمل) فيقول﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[36]، وفي هذا الوعد بالمغفرة ترغيب في الاستقامة، والإقبال على الله تعالى، والنفس تؤخذ بما يغريها، كما تؤخذ بما يرهبها ويخيفها.

رابعا: دور التعقيبات الختامية في الترهيب بالوعيد

جاء الوعيد الختامي في القرآن الكريم بصيغة التعريض غالبا، فقال تعالى في ختام سورة العاديات﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِير ﴾"فدلّ تقديم (بهم) على هذه المراقبة الدائمة لمن كفر به، تمهيدا لأخذه بسوء فعاله، وكأن الله تعالى قد تفرغ لمراقبته، وخصه بها دون خلقه، وفي ذلك ما فيه من الوعيد الذي ترتعد له الفرائص، وتنخلع له القلوب"[37]

وفي ختام سورة (هود) قال تعالى﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[38] ، وهو تعقيب مشابه لذلك الذي جاء في ختام سورة (النمل) مع اختلاف في مطلع آيته، حيث يقول الله تعالى﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فليعملوا ما يشاؤون، وليكونوا كما يشاؤون، فلا يخفى أمرهم على الله تعالى، وسيلاقون حسابهم الذي يستحقون.

---

[35] - في ظلال القرآن، 2885/5.

[36] سورة المزمل الآية 20.

[37] - الخضري، محمد الأمين، من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية، ص41.

[38] - سورة هود الآية 123.

وتختتم سورة (الشعراء) كذلك بوعيد للذين ظلموا أنفسهم بالكفر، والإعراض عن سبيل الحق، على شكل تعقيب جاء فيه﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ** ﴾[39] ، هذا التعقيب الختامي يتناسب تماما مع جو السورة المصور لعناد المشركين ومكابرتهم، وعدم اكتراثهم بالوعيد مستعجلين العذاب الذي حلّ بهم، هذا التهديد الخالد يطال كل مصرّ على الصدود، معرض عن اتّباع الحق، مستمر على المعصية والجحود.

كما يأتي في ذات الغرض تعقيب ختامي مصور لحالهم، ومتوعّد لهم بالإشارة إلى إحاطة الله تعالى بما يعملون، حيث يقول تعالى في سورة (فصلت)﴿**أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ** ﴾[40] ويتجدد الوعيد في ختام سورة (الذاريات) حيث يقول تعالى﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ** ﴾

كذلك يحذّر الله تعالى المسوّفين بالطاعة من الأجل المحتوم الذي لا تبقى معه فرصة للعمل في ختام سورة (المنافقون) فيقول﴿ **وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾

ويحمل الوعيد الاستفهام التقريري الذي جاء في ختام سورة (القيامة) بعد ذكر دلائل قدرة الله تعالى على البعث والنشور، حيث يقول﴿**أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى** ﴾ كذلك ينكر عليهم الإعراض عن الذكر وما جاء فيه من الحق في ختام سورة (المرسلات) بتعقيب إنكاري﴿**فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** ﴾

وجماع ما تحمله هذه التعقيبات من معاني مرتكزٌ في حقيقة هذه النفوس المعرضة عن الحقّ، حيث أرسل الله تعالى الرّسل، وأنزل الكتب، وعرّف الجنّة، وحذّر من النار، ثم هم بعد ذلك يجحدون، لذلك فقد تنوّعت الخطابات التي حملت الوعيد بين تأكيد إحاطة علم الله تعالى بهم، ونفاذ خبرته في طبائعهم، واقتداره عليهم في الدنيا والآخرة، لكنهم مع ذلك يصرّون على إكمال مشوار الصدود إلى منتهاه الشنيع، وبئس ما يقترفون، "فقد أُبلغوا رسالة ربّهم، وصُرّفت

[39] - سورة الشعراء الآية 227.

[40] - سورة فصلت الآية 54.

لهم الآياتُ، وضُربت لهم الأمثال، وأقيمت الحجج والبراهين، وهاهم أولاء على مفترق الطرق، فإمّا يمينا أو شمالا، إمّا أن يؤمنوا بالله، ويستجيبوا لرسول الله، فتسلم لهم دنياهم وآخرتهم جميعا، وإمّا أن يصدّوا عن سبيل الله، ويأخذوا طريقهم مع أهوائهم وشياطينهم، فيخسروا الدنيا والآخرة معاً"[41]

خامسا: دور التعقيبات الختامية في الجمع بين الترهيب والترغيب

جاءت سورة (الأنعام) المكية التي عدّدت على الخلق نعم الله تعالى، وحرصت على غرس العقيدة الصحيحة، وتثبيت الإيمان في النفوس معقَّبةً بما يثير الخوف والرجاء في القلوب، ويدعو للإقبال على الله تعالى رغبة ورهبة، حيث قال﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ۝[42] ويأتي هذا التقرير في ختام سلسلة من الآيات الملقنة للنبي صلى الله عليه وسلم ما يرد به على المشركين من دلائل رحمة الله تعالى بخلقة في رزقهم، ومعاشهم، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، حتى يؤدوا حق الشكر على الإيجاد، وعلى التكفل بالرزق، وعلى الهداية، وسائر النعم التي لا تعد ولا تحصى، ليكون الخوف والرجاء في حياة أهل الإيمان عقيدة، ومنهجا في الحياة يحميهم من الزيغ والضلال، ويحييهم على هدى ونور من ربهم.

ومنه قوله تعالى في ختام سورة (الشورى)﴿**آصِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ** ۝ فالأمر لله، والمآل إليه، ومن أحسن يكون له وعدا، ومن أساء يكون له وعيدا وترهيبا.

[41] - الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، 844/8.

[42] - سورة الأنعام الآية 165.

.

كذلك يتراوح تأكيده تعالى على إحاطة علمه لما في السموات والأرض، وتذكيره بمصير الأمور إليه بين الترغيب والترهيب، فالمؤمن يعلم أنه سيجازى على عمله بالقسط، وينال الدرجات الرفيعة، والكافر يهدد بما ينتظره جراء سوء عمله، ويشمل ذلك قوله تعالى في نهاية سورة (الحجرات)﴿**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** آ ﴾ فهو سبحانه وتعالى بصير بأعمال المحسنين ليجزيهم عليها، ولما يقترفه المسيئون لينالوا الجزاء على صنيعهم.

وتتعلق الذكرى بمشيئة الله تعالى، فتكون متحققة لمن أراد لهم الهداية، وممنوعة عن المعرضين، وفي ذلك ترغيب وترهيب حمله التعقيب الختامي لسورة (المدثر) في قوله تعالى﴿**وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** آ ﴾

ومجمل القول في هذه الظاهرة هو دقة النظم القرآني، وشدّة التناسب فيه، فكما يتمكن العبارة في موضعها، والآية في سياقها، كذلك يتمكن المقطع من موقعه، فيخدم مطلعه، ويتعدّاه في بعض الأحيان ليخدم السورة بكاملها، خارجا مخرج الدعوة العامة للعالمين لكي ينيبوا إلى ربهم، ويتدبّروا في أحوال خلقتهم، وما يحيط بهم، ويخشوه، ويعملوا ليوم الرجوع والوقوف بين يديه.

وعلى سعة باب التعقيبات في القرآن الكريم، وتشعب الحديث عن وظائفه المعنوية والصوتية، يتحدّد بنا المسار ونحن نتناول التعقيبات الختامية التي لم تشمل كلّ سور القرآن الكريم، على اعتبار خروج بعضها بخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم، واختتام بعضها الأخرى بما يكمل المعنى المتسلسل، أما ما جاء منها مختتما بتعقيبات فهي عادة في خدمة المقاصد الكبرى للقرآن الكريم، لترسيخ العقيدة، وإثارة العبرة، وشدّ النفوس بما يوجه إليها من وعد أو وعيد.

فهرس المراجع

ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، 1979م، دار الفكر.
ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، 1984م، الدار التونسية للنشر.
ابن منظور، لسان العرب، ط3، 1414هـ، دار صادر، بيروت.
أبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن الكريم، 1992م، مكتبة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب.
الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، د.ت، دار الفكر العربي، القاهرة.
الخضري، محمد الأمين، من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية، 1994م، دون دار نشر.
سيد قطب، في ظلال القرآن، ط1، 1972م، دار الشروق، القاهرة.
الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، دار الغرب الإسلامي.
العرابي، مراد، الظاهرة الأسلوبية في التعقيبات القرآنية، أطروحة دكتوراه، 2014م، كلية اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة.
العمري، أحمد خيري، البوصلة القرآنية، ط3، 2010م، دار الفكر، دمشق.